مصر منذ تسعين سنة

— لسانح الفرنسوي دي نرفال —

(٦)

الدراويش

خرجت من عند قنصلي بعد العشاء وكان خادمي البربري ينتظرني عند الباب وقد اوسلهُ عبد الله ترجماني ليرافقني الى منزلي ليلاً وقد انف هذا ان يأتي بنفسهِ لئلاَّ يحسب خادماً رخيصاً فقضى جزءاً من الليل في القهوة مع بعض التراجمة ثم دخل الى منزلي ونام. ولما كنت مجتازاً مع البربري في محلة الازبكية رأيت حركة غير عادية فالطرق والقهاوي مكتظة بالناس وفوق الحوانيت المصابيح والزينات والاعلام. ومنائر الجوامع مزينة بالانوار والمؤذنون يرتلون الآيات القرآنية. ورأيت عند ساحة العتبة الخضراء ووراءها صواوين داخلها المقاعد والكراسي للجالسين وبينهم القراء والفقهاء يقرأون القرآن انشاداً وفي بعض الصواوين والحوانيت جوقات المغنين وضاربي الطبول والزمارين. ثم اجتزت من هناك الى ما بين حارة الافرنج والاقباط فرأيت في صحن احد الجوامع جماعة من الناس واقفين على شكل دائرة في وسطها اناس ينشدون وحولهم اربعون او خمسون شخصاً يرددون ذكر الله على طريقة لم ارها قبل الآن. فوقفت اتفرج على هذا المشهد رغماً عن ارادة البربري خادمي وكان يدفعني بقوة حتى اخرج من هناك خائفاً على زعمهِ من ان يتعدى عليَّ احدٌ من الجهلة لكوني نصرانيًّا افرنجيًّا ولكني رأيت هناك كثيرين غيري من الاقباط واقفين يشاهدون تلك الحفلة الدينية وقد عرفتهم من جبابهم وعمائمهم السوداء. واني لعالم ان المسلمين يتسامحون كثيراً في ترك الاجانب يشهدون حفلاتهم الدينية. ولما لم اتمكن من اقناع البربري باشارات واضحة قلت لهُ ان يأخذني الى خمارة المسيو جان مواطني وكانت على مقربة من هذا المكان. ولما وصلت رأيت عندهُ جماعة من الاروام والاقباط يشربون الخمر فسألتهُ عن تلك الزينات والافراح والمعالم التي رأيتها في تلك البقعة وعن الجمع المحتشد في صحن الجامع وعن تنشيد الفقهاء والمرتلين فقال لي انها حفلة عيد لولي ذلك الجامع وهذا العيد معروف عندهم « بالمولد » وكل البيوت والحوانيت حولهُ تزين تلك الليلة بالاعلام والشموع والازهار. وان تلك الحفلة التي رأيتها في صحن الجامع معروفة بحفلة « حلقة الذكر » حيث

يجتمع الفقهاء وارباب الطرق المنتسبون الطريقة ذلك الولي فيرتلون الايات القرآنية والناس من حولهم وقوف يرددون ذكر اسم الله

فدعوته لان يصحبني الى المكان المشار اليه لاتفرج على هذه الحفلة . ولما وصلنا كانت الحفلة في اجمل مظاهرها فرأيت القائمين بالذكر وقوفاً يتمايلون يميناً ويساراً و يترنحون هياماً وهم يرددون ذكر اسم الله بسرعة والمنشدون يثيرون بقصائدهم عاطفة حب الله في صدور السامعين . وقال لي المسيو جان ان اسلوب الحفلة ليس من عقائد الدين الاسلامي وانما هو اختراع قوم من الصوفية يعتقدون ان سعادة الروح في التجرد من المادة وهم بحسب الطريقة كأنهم مجردون من الجسم الحيواني فتسرح ارواحهم وتهيم في حب الله . واما القصائد التي ينشدونها في وسط الدائرة فكلها من منظومات الشعراء الصوفيين . وقد رجوته ان يترجم لي بعض ابيات من تلك الاشعار ففعل . وها انا انقل بعض ابيات منها :

ذاب قلبي من الوجد والغرام وجفوني لا تنمض من الحب والهيام
وجسمي مضنى من السقام هل يا ترى ارى حبيبي ولو في المنام
في ظلام الليل انشد حبيبي الغالي ودموعي على خدي كاللآلي
وفؤادي بنى لظى الشوق يا حمام الدوح لِمَ تنوح
قالي على فراق الحبيب والبعاد احرق فؤادي (١)

وارى ان الانشاد الروحاني هو بمثابة نشيد الانشاد في التوراة . وقال لي جان سترى بعد غد حفلات ذكر اكبر من هذه وذلك في مولد النبي . ولكن يجب ان تقف بزي عربي صرف لان هذا العيد يقع هذه السنة في يوم وصول المحمل ورجوع الحجاج من الحجاز . وبين هؤلاء عدد كبير من حجاج المغاربة والجزائريين وهؤلاء على جانب عظيم من الحماس حتى انهم لا يطيقون ان يروا في حفلاتهم الدينية اجنبياً وخصوصاً اذا كان مثلك بزي افرنجي

— الخدمة المنزلية —

وفي صباح اليوم التالي دعوت عبد الله ترجماني وقلت له اني عزمت ان لا اعود بعد الى الفندق واشرت اليه ان يعد لي الغداء في المنزل عن يد الطباخ مصطفى . وفي السوق كثير من اللحوم والدجاج والخضر والفاكهة ما عدا الاسماك التي تصاد من النيل وكلها تباع

(١) لم اتمكن من نظم هذه الابيات حسب وضعها الاصلي ولم اجد في قصائد ابن الفارض او البهاء زهير او غيرهما من شعراء الغرام ما يطابق اللفظ من الاشعار ولذلك عربتها تعريباً حرفياً وبقلب على ظني انها من اغاني العصر الماضي

باثمان بخسة جداً . فالدجاجة الصغيرة تشترى بقرش واحد والحمامة بنصف قرش وقال لي المسيو جان انهُ لا يذبح في مصر سوى الغنم والجمال واما لحم البقر فلا وجود لهُ . والخضر كثيرة منها نوعان شائعا الاستعمال وهما الباميه والملوخية وليستا معروفتين عندنا في اوربا . ومع رخص هذه المواد الغذائية رأيت بعد بضعة ايام ان نفقات المطبخ فاقت كثيراً المصاريف التي كنت أدفعها في الفندق وتجاوزت الحد الذي كنت اظنهُ فتأكدت حينئذٍ صدق قول مواطني جان ان الخادم والطباخ والترجمان اتفقوا على سرقتي . وهذا ما كان يشكو منهُ السياح من قبلي . فشاتوبريان قال انهُ انفق مالاً طائلاً على مطبخهِ مدة اقامتهِ بمصر . ودي لامارتين نفدت دراهمهُ قبل ان يتمكن من اتمام سياحتهِ وكثيرون من السياح لم يتمكنوا سوى بضعة اسابيع واضطروا ان يعودوا الى بلادهم قبل ان يتموا سياحتهم في هذه البلاد لنفاد ما عندهم من المال . واخيراً عزمت على ان اقتني جارية فاستغني بها عن الطباخ والترجمان واقتصد بعض النفقات حتى لا اضطر ان اعود الى فرنسا قبل اتمام سياحتي في مصر وسورية ولبنان . واتفقت مع عبدالله على ان اذهب في اليوم التالي الى سوق الجواري لاشتري جارية لتقوم بخدمتي المنزلية

— وكالة سوق الجواري —

في صباح اليوم التالي اصطحبت ترجماني فاجتزنا في شوارع واسواق كثيرة الى ان وصلنا بعد ساعة الى منزل محاط بجدار عالٍ فدخلنا في بوابة كبيرة الى حوش واسع في وسطهِ بئر واشجار كثيرة من الجيز وقال لي عبد الله ان هذا المكان يدعى « وكالة الجلابة » او سوق الجواري . فلما وصلنا الى آخر الحوش رأينا نحو اثنتي عشرة جارية من الزنجيات والسودانيات متوسدات الثرى ومستندات الى الجدار . تستر اجسامهنَّ ثياب بالية زرقاء وهيئاتهن تدل على الكآبة والبؤس . وحينئذٍ اقبل بعض الخاصين ارباب هذه الوكالة فاستقبلونا بترحاب وسألنا احدهم عما نريد من الجواري أسودانيات ام نوبيات ام حبشيات فقلت لهُ بواسطة ترجماني اريد ان اراهنَّ كلهن لانتقي منهن جارية تصلح لخدمتي

فادخلنا الى المنزل وهناك غرف ارضية رحبة لدخلنا في احداها واذا هناك ست جوار سودانيات وزنجيات جالسات على حصير فلما وقع نظرهن عليَّ استغرقن في الضحك والقهقهة لغرابة ملبسي الافرنجي فلم اظهر شيئاً من الغيظ وقد وجدت لهنَّ عذراً في ذلك لان انظارهن لم تألف بعد مرأى رجل بقبعة طويلة ولباس ضيق . وربما كنت اول افرنجي وقف امامهنَّ . وكن لابسات اثواباً خلقة لا تكاد تستر اجسامهن ولست اوم الخاص في ذلك

لانهُ غير مضطر الى تحسين بضاعتهِ وتزيين جواريهِ وهن معروضات في كل ساعة للبيع . وكانت شعورهن مضفورة في عشرات من الجدائل الصغيرة الدقيقة ووجوههن لامعة من طلاء الشحم والزيت على عادة البلاد التي اتين منهـا . وكن لابسات في ايديهن وارجلهن واذانهن كثيراً من الاسورة والخلاخل والاخزمة والاقراط النحاسية وعلى سواعدهن وصدورهن الوشم الازرق وعلى وجوههن آثار خطوط وندوب مما يزيدهن قبحاً . وقيل لي انهن جلبن من السودان وسنار . ورغماً عما كن فيهِ من نضارة الجسم وزهو الصبا لم تمل نفسي الى اقتناء جارية منهن لاني رأيت لي ضخامة شفاههن وبروز الفك الاسفل واتساع سيقة وجوههن وانخفاض جباههن مما يجعلهن في نظر الاوربي قبيحات جداً وهو لم يعود نظرهُ بعد هذا الصنف من النوع الانساني فاذا لم اجد جارية منهن تصلح لي فان قصور العظماء وسرايات الامراء لي حاجة الى مثل هؤلاء الجواري للقيام بالخدمة المنزلية وهن موصوفات بقوة الجسم والنشاط والهمة والصبر على الخدمة والاعمال الشاقة

ورأيت في غرفة اخرى جواري نوبيات اقل قبحاً من الاوليات واصغر سناً واصفى لوناً ولو كنت غنياً وقصدت ان اقضي الحياة في البذخ والتنعم حسب المعيشة الشرقية المترفهة لابتعت كثيراً من هؤلاء الجواري ولكني كسائح عابر سبيل لا اريد سوى جارية تصلح لخدمة منزلي . فطلبت من النخاس ان يريني احسن مما رأيت فقال لي ان ذلك منوط بمقدار ما ادفعهُ من المال ثمناً للجارية فسألتهُ — وكم ثمن الجارية من هؤلاء السودانيات والنوبيات فاجاب كيسان . وعلمت انَّ الكيس خمسماية غرش او ١٢٥ فرنكاً وقال لي ايضاً اذا اشتريت جارية فلك أن تردها في مدة ثمانية ايام اذا رأيت فيها عيباً . فقلت لهُ اريد جارية احسن مما رأيت . فاخذني الى مخادع اخرى وفيها كثير من الجواري النوبيات وهن اصغر سناً واكثر نضارة واقل قبحاً من السابقات الاَّ انهن كلهن من صنف واحد . ثم عزم النخاس ان يعريهن من ثيابهن حتى يريني نضارة اجسامهن واتجدال عضلهن ومرونة صدورهن فاستهجنت هذا الامر . وهؤلاء الفتيات المسكينات الساذجات كن طوع امر سيدهن لا بل كن يضحكن ويتهمسن كأن هذا العمل مألوف عندهن وقد تعودنهُ وذلك ما جعل هذا المنظر المستهجن اقل تأثيراً في نفسي . وكل واحدة منهن عللة انها خطفت او ابتيعت من بلادها لا لتبقى اسيرة عند النخاس بل لتباع لسيد نقيم عندهُ وربما لقيت حظوة لديهِ وحسنت حالتها وصلحت معيشتها . ثم قلت لعبد الله ان يسأل النخاس عن الجواري الحبشيات . فاجابني عن لسانهِ

ان الحبشيات لا يعرضن عادة للفرجة لكل قادم او متفرج من السياح والغرباء بل لمن تأكد انهُ اتى بقصد الشراء حقيقةً . وعدا ذلك فالحبشيات اغلى ثمناً من غيرهن والواحدة منهنَّ تساوي ثلاثة او اربعة اكياس . وهنَّ نادرات الوجود الآن وفي بعض السنين لا يأتي « الجلابة » الاَّ ببضع جوارٍ منهنَّ . ثم اشار اليَّ ان انتقي من بين السودانيات جارية ونقلية فاجبتهُ لا اريد سوى حبشية . فقال لي عبد الله اذاً فلنذهب الى وكالة اخرى في خان جعفر او خان كوجك . ولما علم النخاس بعزمنا على الذهاب من عنده الى وكالة اخرى من غير ان نشتري جارية منهُ قال لي انهُ جلب عدداً من الجواري الحبشيات ولكنهُ وضعهنَّ في وكالة خارج المدينة لكي لا يضطر ان يدفع عنهنَّ رسم الدخولية وعرض علينا ان نصحبهُ الى هناك لكي نراهنَّ . فقلت لهُ لا بأس حيا بنا

خرجنا من هناك واجتزنا شوارع كثيرة الى ان خرجنا من المدينة شمالاً وسرنا بين مدافن على اكام وتلال والطريق هناك متربة يثور عثيرها الناعم في الهواء فيحجب عنا الجادة . ثم انحدرنا الى سهل واسع بقرب من حصن قديم يقال لهُ باب المذبح وعلى مقربة منهُ جامع تداعت جدرانهُ للخراب فترجلنا عن الحمير واستقبلنا عند باب فضاء واسع بعض العربان . وفي وسطهِ خيام منصوبة وضعت فيها الجواري وعندما دنونا من تلك الخيام بلغ الى سمعنا جلبة وضوضاء فادخلنا الجلاَّب الى الخيمة الاولى وفيها بعض الجواري السودانيات فلما وقع نظرهنَّ عليَّ استغرقن في الضحك كغيرهنَّ . وفي وسط الخيام ساحة فيها بعض جوارٍ يعملن في الغسل والطبخ . واجتذب نظري جارية واقفة عند موقد النار تحرك الطعام في حلةٍ كبيرة فدنوت منها ورأيتها تطبخ نوعاً من الحبوب ولما وقع نظري عليها دهشت من اعتدال قوامها وتناسب اعضاء وجهها وصفاء لون بشرتها وطيبها نسخة من الجمال فقصدت ان ابدأ الحديث معها بلفظة « طيِّب » فلم تعرني انتباهاً ولم تلتفت اليَّ وظلت مكبة على عملها فتحولت عنها الى باقي الجواري فلم استحسن واحدة منهنَّ وتقززت من رائحة الشحم والزيت المدهونة به شعورهنَّ واجسامهنَّ . وقال لي عبد الله ان ذلك من نوع التحلي والزينة في بلادهنَّ . وكنت كلما دنوت من واحدة منهنَّ تطلب مني « بقشيشاً » فاخذت بضعة فرنكات ودفعتها للنخاس لكي يوزعها عليهنَّ وخشيت ان يستأثر بها فقلت لهُ وزعها على مرأى مني فقال

انهنَّ لا يعرفن قيمة النقود ولا يدرين ما يصنعن بها والاولى ان اوزع عليهنَّ اشياء اخرى بقيمتها ثم احضر لهنَّ مقداراً من التمر الناشف والبطيخ والتبغ وزجاجة من العرق ووزعها عليهنَّ فاظهرن السرور والانبساط وبدأن يرقصن امامي علامة الشكر على صنيعي .

واما الجارية الطويلة التي جذبت نظري فلم تحرك من مكانها ولم تشترك مع رفيقاتها بالسرور كانها تأنف ان تساوي نفسها بهن فدنوت منها وحدقت في وجهها فاظهرت النفور والانفة واخيراً وقعت عينها على كتفي وعليها قفازان من جلد اسود فاظهرت الدهشة والاستغراب كيف ان لون وجهي ابيض ويداي سوداوان فتركت عملها ووقفت تنظر بحيرة الى هذا الامر الغريب الذي لم يدركه عقلها الساذج. ولكي ازيد دهشتها وضعت يديّ وراء ظهري ونزعت عنهما القفازين ثم اظهرتهما مجردتين فذعرت من هذا التغيير الفجائي وظنتني ساحراً ففرت من امامي وهي تصرخ برعب «بسم الله الرحمن الرحيم هذا عفريت هذا شيطان» فذعرت رفيقاتها فابتعدن عني وهنّ ينظرن اليّ شزراً. ثم دنوت من عبد الله وقلت لهُ اقد اعجبتني تلك الجارية الواقفة تطبخ عند الموقد فكم يبلغ ثمنها؟ اجاب ان هذه الجارية لا يبيعها صاحبها لانها محظيتهُ وهو يرجو ان تلد لهُ ولداً وحينئذٍ امانهُ يعتقها ويجعلها زوجةً لهُ واما انهُ يبيعها بثمن طائل كرضمة ولأدة فتأثرت من هذا الجواب ثم قلت لهُ

اليس عندهُ جارية حبشية لان نفسي تعاف مرأى هؤلاء الزنجيات فقال ان الحبشيات نادرات الوجود الآن واشار اليّ ان انتظر مدة يومين عند وصول الحجاج من مكة. وكثيرون من تجار الجواري «الجلابة» ياتون معهم ويجلبون جواري حبشيات وتركيات وهنديات وغيرهنّ من جزيرة العرب وسكان محيط الاوقيانس وقال ان الحجاج سيقفون في منهل بعيد عن المدينة يقال لهُ «بركة الحاج»

ثم خرجنا من تلك الوكالة ولما وصلنا الى باب المذبح ومررنا في شارع الحسينية رأينا رجلاً تركياً يتبعنا وقد خرج من تلك الوكالة يقود امامهُ جاريتين سوداويتين اشتراهما فلاحت مني نظرة اليهما فرأيتهما تبكيان والدموع ملأ اعينهما ولا اعلم لماذا تبكيان هل كان ذلك حزناً على فراق رفيقاتهما ام فرحاً لتخلصهما من اسر الخاص وشظف العيش. ذهبتا وهما لا تعلمان ما خبأ لهما الزمن هل تكونان في بيت من اشتراهما كمحظيتين ام كخادمتين

— مرسح في القاهرة —

اجتزنا بشارع الحسينية ثم مررنا في طريق على محاذاة ضفة الخليج وعند آخره يتفرع بين حي الافرنج وحارة اليهود ثم مررنا في الموسكي وعند مدخل واغورن بالقرب من الفندق (خمارة النيل القديمة) رأيت اعلانات بحروف افرنجية معلقة عند مدخل قهوة كبيرة علمت منها ان ستمثل تلك الليلة رواية فرنسوية يقوم بتمثيل ادوارها نخبة من الافرنج غواة التمثيل لاعانة جمعية العميان الفقراء وهم في مصر كثيرون جداً فصرفت ترجماني عبدالله وذهبت

وتناولت العشاء في الفندق وعند الساعة التاسعة ذهبت الى الملعب فرأيت ساحة واغورن ضيقة على سعتها وقد ازدحمت فيها اندية الذين قدموا لحضور التمثيل ومن المتفرجين والمارة والغلمان والمحمولين والحمارة والصراخ متواصل من كل جهة « بقشيش بقشيش » كما رأوا افرنجيًّا داخلاً

فدخلت الى الملعب ورأيته مكتظًّا بالوافدين والمقاعد التي ملأى بالجالسين من الطليان والاروام والمالطيين . وفي المقاعد الامامية قرب جوق الموسيقى كثيرون من النساط الاتراك والباشارات . واما الالواج فكلها ملأى بالنساء الافرنجيات والشرقيات ومعظمهن من السوريات وهؤلاء اكثرهن بهرجةً وزينةً وافخرهن مليًّا وحلية وقد نزعن الحبرات عن رؤوسهن وجلسن سافرات الوجوه . وترددي الكثير بين اصناف السجيين نساء ورجالاً فالنساء السوريات والمالطيات وبعض الايطاليات المتوطنات في مصر من زمن طويل يلبسن على رؤوسهن الطربوش الاحمر المطوق بالعصائب المقصبة . واليونانيات يلبسن طاقية حمراء مطرزة بالشريط الذهبي يقال لها في اللغة الرومية « تاثيكوس » والنساء الارمنيات يعرفن بوضع الشال على اكتافهن والغطاء الابيض على رؤوسهن . واما اليهوديات فحيث يحرم على المتزوجات منهن اظهار شعورهن لاجنبي حسب المذهب الرباني التلمودي يلصقن على رؤوسهن قبعة من ريش الطيور تغطي الشعر . واما اثواب النساء فتختلف بين الاوربيات والشرقيات وهؤلاء الاخيرات وخصوصًا السوريات والتركيات يلبسن ثوبًا من الحرير مزركشًا بالقصب قصيرًا الى الركبتين حتى تظهر تحتهُ اطراف لباس ضخم معقود عند كاحل الرجلين يقال لهُ « شنتيان » والثوب منفرج عند الصدر انفراجًا واسعًا حتى تبرز النهود وهو مشقوق من الجانبين حتى تظهر اخاصرتان . ويتمنطقن بمنطقة من الحرير المثون في اوساطهن . وهذا النوع من الزي ورد اخيرًا من اسطنبول مع النساء التركيات والشركسيات ويقال لهُ عندهم « اليشمك » وكان قبلاً شائعًا في اوربا منذ بدء القرن الماضي . اضف الى ذلك ما يلبسن من الحلي والاقراط وما على رؤوسهن من الاهلة المرصعة بالماس والحجارة الكريمة وحول اجيادهن من العقود واللآلئ . في هذا الملعب معرض الجمال والزي الشرقي على اختلاف انواعه وابهة الفخفخة الشرقية . وهذا الجمال ليس طبيعيًّا صرفًا لاني رأيت اكثر النساء يبذلن ما في وسعهن ليظهرن جميلات مكحلات العيون مزججات الحواجب مبيضات الوجوه محمرات الوجنات يوسمن وجوههن وجباههن بشامات سوداء على عادة اهل القرن الماضي في

اوربا الأ انها ابطلت في فرنسا بعد الثورة الفرنسوية واما شعورهن فمصبوغة بنبات يقال لهُ الحناء كأن لونها الطبيعي لا يعجبهن . فالمرأة الشرقية بما عليها من الزينة والحلي والجواهر عنوان منزلة اهلها المالية والادبية تحمل على جسمها ثروة زوجها . واما النساء المسلمات فلم يكن في المسرح منهن سوى بعض التركيات وكن محجبات وقيل لي انهُ لم يكن بينهن امرأة واحدة مصرية

ثم فتح الستار ومثلت رواية من نوع الفودفيل وكانت المثلة الاولى مدام برنوم صاحبة المكتبة الفرنسوية التي سبق ذكرها . وعند انتهاء التمثيل خرج الجمع . اما النساء اللواتي وصفتهن فخرجن محجبات بالسواد ساترات الوجوه ببرقع أبيض يقال لهُ « برغوث » وسار خدمهن أو رجالهن يحملون امامهن الشموع والفنارات ومن كن يسكن في مكان بعيد ركبن الحمير وذهبن

— الحلاق —

في اليوم السابق من وصول المحمل وركب الحجاج فكرت في مشورة مواطني جان وهي ان ابدل زيي الافرنجي بزي عربي لئلا اعرض نفسي لخطر او اهانة من المغاربة المتحمسين . وكنت قد اشتريت قبلاً مشلحاً من الصوف فاخذتهُ وذهبت الى صديقي المصور ورجوت منهُ ان يأخذني الى حلاق يعرفهُ فخرجنا معاً واجتزنا شارعاً طويلاً على جانبيهِ دكاكين الاروام والارمن (بين السورين) ثم دخلنا الى دكان حلاق مالطي تطلُّ نوافذهُ على ترعة الخليج . فجزَّ شعري الطويل وترك خصلةً منهُ في ام رأسي حسب عادة المسلمين واصلح من شأني حلاقة وغسلاً وتزييناً ثم اشترينا طربوشاً احمر مغربياً وطاقية بيضاء تلبس تحتهُ دائرها مزركش بخيوط حريرية . وهذا النوع من الطرابيش يصنع في مدينة « تور » احدى مدن فرنسا ويرد منها الى كل بلاد المشرق . ولكي استر لباسي الافرنجي اشتريت سروالاً واسعاً من الجوخ الازرق فوقه صدرية حمراء مخرمة الطرف بشريط وازرار فضية ولما لبست هذا اللباس ووضعت على رأسي الطربوش تتدلى عليه الطرَّة الطويلة من الحرير الازرق وتدثرت بالمشلح الابيض على كتفي قال لي الحلاق والحاضرون انهُ يحق لي الآن ان اسمَّى « شلبي » وهي كلمة تركية تطلق عندهم على كل شاب حسن الهندام . وقال لي المصور اني صرت بزيي هذا اشبه اميراً سورياً لبنانياً وسل حديثاً من ميداه او بيروت

— ركب الحجاج —

وفي صباح اليوم التالي ذهبت مع صديقي المصور وترجماني للتفرج على ركب الحجاج

وكانوا قد وصلوا قبل يوم ونزلوا مع المحمل في بركة الحاج بالقرب من المطرية . فاستأجرنا الحمير وخرجنا من باب الفتوح ورأينا في طريقنا جماهير الناس ذاهبين الى ذلك المكان بين مشاة وفرسان وعربا راكبي الجمال وقد غصت بهم الطرق والسهول . ومرت فرقة من حرس الباشا الراقي باسلحتها اللامعة وخوذاتها النحاسية ورماحها الطويلة . وصلنا الى سهل واسع عند ترعة الخليج بالقرب من المطرية . وكانت هناك خيام مضروبة واعلام مرفوعة لاستقبال الحجاج الوافدين . وبلغ عددهم في هذا العام كما قيل لي ثلاثين الفا بين مصريين واتراك ومغاربة من مراكش والجزائر وتونس . ومرت فرق عديدة من ارباب الطرق باعلامهم وشاراتهم المختلفة (١)

— السيد عبد الكريم —

في صباح اليوم التالي ذهبت مع ترجماني الى سوق الجواريه في سوق العزي Souk-el-Ezzi (؟) بعد ان لبست ملابسي الجديدة الشرقية لئلا يهزأ الجواري بي كما فعلن في المرة الاولى فوصلنا الى منزل ذي رحبة واسعة يدعى بيت الكاشف كان قبلا لاحد امراء المماليك وفي صدره ايوان واسع باعمدة من رخام حوله مقاعد ووسائد حريرية . فرأينا رجلا اسمر اللون بدين الجسم واسع الصدر متربعا على المقعد وهو يدخن ارجيلة وامامه كاتب قبطي جالس على الحصير ومعه ادوات الكتابة ويظهر انه كاتب سره

فلما صعدنا الى الايوان استقبلنا الرجل بترحاب ولطف . وقال لي عبد الله هذا هو السيد عبد الكريم من اشهر واكبر الجلابة تجار العبيد والجواري . ثم وضع عبد الكريم يده على صدره وجبهته ورحب بي بقوله اهلا وسهلا . فرددت عليه السلام وادرك من لهجتي الغريبة اني افرنجي ثم دعاني للجلوس بالقرب منه على المقعد وامر ان تقدم لي القهوة والارجيلة واما ترجماني فجلس عند طرف الايوان . وكان يترجم بيني وبين عبد الكريم فذكر له منزلي ورغبتي في هذه الزيارة واني اطلب جارية تقوم بخدمتي مدة اقامتي بمصر وذكر له اني استأجرت منزلا وفرشته وجعلته صالحا للمعيشة العائلية . وكان عبد الكريم يخرج من حين

(١) وهذا وصف السائح مرور الموكب في شوارع القاهرة ووصول المحمل الى الحلمية واستقبال محمد علي باشا واعجابه واعضاء اسرته والعلماء والاشراف له مما لا يخرج وصفه عن حد المحفلات المعتادة التي تمثل الآن . واتفق ان ذلك اليوم كان عيد مولد النبي ايضا فوصف ما رآه في المساء من الزينات ومعالم الافراح في الجوامع والدكاكين وقصور العظماء والملاعب المختلفة في ساحة الازبكية والعتبة الخضراء مما لا داعي الى ذكره

لآخر بلغة ايطالية سقيمة وظهر لي من هيئته وحدة نظره انهُ في غاية الذكاء والاقدام ولا تخلو ملامحهُ من المكر والدهاء ولا يدع فائهُ جاب البلاد وخبر العباد وطاف في مجاهل افريقية حتى الحبشة وسواحل بلاد العرب وخليج العجم الى المحيط الهندي . ورأيت في عينيهِ نوراً جذاباً وسلطة على ارادة من ينظر اليهِ ثم نزلنا من الايوان ودخلنا عرصة وراء المنزل فرأينا بعض الجواري النوبيات والسودانيات ثم اقبل بعض المشترين فتركنا عبد الكريم وذهب لاستقبالهم وكان يعرض عليهم كل جارية بمفردها ويطنب باوصافها ويعري اكتافها ويقرع بكفهِ على ظهرها وصدرها ليريهم قوة عضلاتها ونعومة جسمها وقد ساوم احدهم على جارية سودانية واشتراها . ثم رجع عبد الكريم الينا وادخلنا الى دهليز طويل في المنزل حولهُ غرف ومخادع عديدة ورأينا في عرصة داخلية بعض السود المعروضين للبيع ولما امعنت النظر فيهم رأيت بينهم رجلاً طويل القامة نحاسي اللون على كتفهِ مشلح مخطط ولهُ شعر طويل مسترسل على وجههِ وملامحهُ تدل على الوقار والرزانة والانفة . ورأيت على دهشةٍ مني في يدهِ سلسلة او قيداً من الحديد فرابني هذا الامر ولما سألت عبد الكريم عنهُ قال . انهُ امير من امراء الفلا بجوار الحبشة اسر في الحرب مع قبيلة اخرى معادية باعتهُ التخاسين وانما قيد بالحديد لئلاَّ يؤذي نفسهُ او احداً غيرهُ اذا اطلق سبيلهُ لانهُ فخور انوف يأبى الاسر ترفعاً واستكباراً فلت عطفاً اليهِ واسفت على حالتهِ

ثم ادخلنا عبد الكريم الى قاعة واسعة ورأيت فيها سرباً من الجواري الزنجيات والنوبيات الاَّ انهن اصغر سناً ممن رأيتهن قبلاً . وكن يقهقهن ضحكاً وينتين طرباً الاَّ واحدة منهن كانت مترويةً تبكي وتضم الى صدرها طفلاً رضيعاً وربما كانت تبكي حناناً على ابنها الرضيع وهي لا تعلم هل يباع معها ام يفصل عنها فحولت نظري عن هذا المنظر المؤثر وانفطر قلبي شفقة على تلك الام المسكينة التعيسة . ولم استطع كتمان غيظي وانفعالي فقال لي ترجماني بيرودة لا تجزع ولا تأخذنك الشفقة عليها فهذه الجارية مملوكة احد الافندية من موظفي الحكومة ارتكبت زنى او عصت امر سيدها فلكي يؤدبها احضرها الى هنا موهماً اياها بانهُ يريد ان يبيعها ولكنهُ اوصى السيد عبد الكريم ان يحتفظ بها الى ان يأتي اليوم او غداً ويسترجعها ولا اعلم مكان هذا الكلام من الحقيقة . أليس من الغرابة ان تبكي جارية خوفاً من الدق ؟ . ان العبيد والجواري لا يشترون في مصر وكل بلاد الشرق الاَّ للقيام بالخدمة المنزلية والحسان منهن يقمن عند اسيادهن مقام الزوجات بخلاف الرق في امريكا الجنوبية والبرتوغال والبرازيل حيث يشترون العبيد والجواري للاشغال الشاقة في حرث

الارض وزرعها والدمدين . أليس الرق في الاسلام اخف وطأة منهُ عند المسيحيين المتمدنين؟ أليس باي تونس انسلغ الى الرق في بلادهِ قبل ان تلغيهُ هولاندا والبرتوغال في مستعمراتها؟

— الجارية —

صعد عبد الكريم الى منزل حرمهِ ورجع وقال لي ان في حرمهِ بعض الفتيات الحبشيات وهو كثير الاهتمام بهنَّ حتى انهُ سمح لهنَّ ان يأكلن على سفرتهِ مع اسرتهِ ويعاملهنَّ كما يعامل اهل بيتهِ . وانهُ امر ان ينزلن الى غرفة الدار لكي اراهنَّ . فجلسنا ننتظر في الايوان وبعد ساعة فتح باب داخلي وخرج منهُ سرب من الفتيات يبلغن نحو خمس عشرة جارية وكلهنَّ حبشيات نحاسيات اللون . خرجن من الباب يدفع بعضهن بعضاً ووثبن الى فناء الدار ركضاً وقفزاً كانهنَّ ظبيات خرجت من اقفاصها او بنات خرجن من قاعة الدرس الى ساحة اللعب . ثم ذهبن الى حوض ماء كبير واخذن يلعبن برش الماء بعضهنَّ على بعض . فهؤلاء المسكينات يحسبن انفسهنَّ على ضفاف الانهر في بلادهنَّ يسرحن مرحاً على مرأى من اعين امهاتهنَّ ولا يعلمن ما خبأ لهنَّ الدهر والاسر من الكوارث

فامعنت نظري فيهنَّ فاذا هنَّ جميلات متناسبات الوجوه واسعات العيون . وقال لي عبدالله ان كثيرات منهنَّ بعن اختياراً او احضرن برضاهنَّ قصد البيع لعلهنَّ يجدن مستقبلاً حسناً سعيداً . ولما سألت عبد الكريم عن ثمن الجارية منهنَّ اجاب اربعة اكياس (٢٠٠٠ غرش) لان الحبشيات يبعن غالياً بثمن اغلى من النوبيات والسودانيات . ثم عرض عليَّ ان يريني منزل حرمهِ وقال لي ان عندهُ ايضاً جواري أخر اغلى ثمناً واحسن شكلاً . فاصعدني وحدي الى الطبقة العليا واراني في احدى الغرف خمس جوار حبشيات على جانب عظيم من الجمال وكلهنَّ صغيرات بعيون واسعة واتوف معتدلة وشفاه رقيقة ووجوه مستديرة لا فرق بينهنَّ وبين اجمل النساء الاوربيات الاَّ في لون البشرة النحاسي فالجارية منهنَّ تشبه في جمالها تمثال الزهرة الرخامي الابيض الذي اكسبهُ لونهُ من حرارة الشمس وطول الزمن . وقال لي عبد الكريم انهنَّ نصرانيات من صميم الحبشة . فوقفت في حيرة لا اعلم من اختار منهنَّ لانهنَّ متماثلات في كل شيء وحينئذٍ حانت مني التفاتة فرأيت جارية واقفة عند باب المخدع فلما وقع نظري عليها دهشت اذ رأيت امامي فتاة بديعة الجمال حسنة القوام لونها اصفر ضارب الى البياض عيناها لوزيتان ناصرة الجسم فادركت لاول وهلة انها من الجنس الاصفر من سكان جاوه او جزائر المحيط الهندي فاقتربت قليلاً منها فرأيت من لمعان عينيها الجذابتين ونعومة بشرتها ما جعلني اميل اليها . ولما رأى عبد الكريم كثرة تحديقي

بها ولحظ ميلي اليها وضع يدهُ على كتفي برفق وقال لي « بونو بونو مولتو بونو »

ثم نزلنا الى الايوان ودار الحديث بيننا على هذه الفتاة بواسطة ترجماني فعلمت انها وصلت بالامس مع ركب الحجاج من الحجاز وان بعض قرصان العرب في عمان اسروها من بلادها وهي صغيرة وباعوها لاحد امراء مسقط في خليج العجم . ولما توفي باعها ورثاؤهُ مع ما باعوهُ من تركتهِ لاحد مشايخ الحجاز في مكة وهي لم تبلغ بعد سن الحلم وهذا باعها في موسم الحجاج للخواص . وقال لي عبدالله ان السيد عبد الكريم وضعها مع حرمهِ عند وصولها امس ولما رأى مني استنكاراً ابدرك ما اريد فاقسم لي اعظم الايمان ان السيد عبد الكريم لا يأتي بعمل منكر امام حرمهِ لئلا يجلب سخطهن عليهِ وعدا ذلك فهو متدين لهُ قضى الليل كلهُ في الجامع يتلي حرمة لعيد مولد النبي

ثم دارت المناقشة بيننا على الثمن فطلب عبد الكريم خمسة اكياس ثمناً لهذه الجارية المجاورة (٢٥٠٠ غرش) وقال لي عبد الله ان السيد يأبى عادة ان يساوم في الثمن . فقبلت ورأيت من العار المساومة على ثمن امرأة . ولما سألتهُ عن اسمها قال لي ان اسمها « زَنَبْ » فسر علي لفظ ثلاثة حروف ساكنة واخيراً علمت ان زنب هو اسم زينب في لغة عرب اليمن وعمان . ثم كتبت لعبد الكريم تحويلاً في الثمن لاحد الصيارفة الافرنج المودعة عندهُ اموالي واستلمت الجارية وخرجنا من هناك يرافقنا احد خدمة عبد الكريم يحمل صندوقاً صغيراً قال لي انهُ يحتوي على بعض ثياب للجارية كانت لها عند سيدها الاول في عمان

ولم نصل الى المنزل الا عند المساء وكان مروراً من حارة اليهود الى الخرتغش فوصلنا الى دار عظيمة واسعة الرحاب لاحد كبار مشايخ الطرق يقال لهُ السيدالبكري فدخلنا ورأينا ازدحاماً عظيماً في فناء الدار ونحو ستين او سبعين شيخاً خاشعين ساجدين على ايديهم وركبهم والشيخ البكري راكب على جواد مطهم وعلى كتفهِ برنس ابيض مشتح بهِ وهو يتنقل بجوادهِ على ظهور هؤلاء الناس والمنشدون من حولهم يذكرون اسم الله ويرتلون الآيات . وقال لي عبد الله ان هذه الحفلة تدعى « حفلة الدعسة » تعمل في السنة مرة في عيد مولد النبي وانها من الخوارق والعجائب لان بركة هذا الشيخ وصلاحهُ يخففان وطأة الجواد عن ظهورهم ويجعلهم يشعرون بالسرور والارتياح ولم يحدث قط في هذه الحفلة عطب او ضرر لاحد من العباد من حوافر جواد الشيخ الشريف

وفي المقالة التالية ما جرى لهذا السائح مع جاريتهِ من الحوادث الغريبة

ديتري نقولا